قُل تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا رسول الهدى - استفهام تقرير -: رؤية المعرفة اليقين القمة وهو حق اليقين ببصيرة الفطرة والعقل، المزودة بالوحي، و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المخاطب العاقل رؤية دون الوحي من إنسان وجان وسواهما من العالمين المكلفين الصالحين لخطابات الله شرعة وتكليفاً، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهما الكون كله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الله بالحق، خلق بسبب الحق ومصاحبته ولغايته، وبالارادة الحقة والنظام الحق، دون فوضى جزاف في كمّ الخلق وكيفه، في بدايته أو غايته ونهايته، ومن هذا الخلق أنتم المخاطبون المكلفون من الجنة والناس واضرابكم.

فالخطاب هنا مطلق لا يقيد بالناس، مهما يخص في الفاطر بالناس كأصدق مصاديقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾[١] والخلق الجديد هنا - أعم من الناس.

﴿خَلَقَ . . . بِٱلْحَقِّ﴾ فإن اخلدتم إلى الباطل ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ جديد قد لا يكون هم من الناس: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾[٢] أم جديدهم من الناس ولكنهم قرن آخرون: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[٣].

وهكذا يتهددنا ربنا إن عشنا خلاف الحق ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وكما قضى على قوم نوح أجمعين إلا شرذمة صالحين، ثم أتى منهم بآخرين.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾:

ترى ومتى برزوا لله جميعاً وهم بارزون منذ كونهم في كونهم وقبل كونهم في علم الله بكيانهم، هل هو يوم القيامة؟: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٤] وهم في مثلث الزمان، وفي اللازمان بارزون لله جميعاً!: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٥].

إن واقع بروزهم لله كائن على أية حال، ولكنهم لكفرهم بالله يخفى

(١) سورة فاطر، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥.

عنهم يوم الدنيا بروزهم لله، ثم هم بعد الدنيا بارزون في اعترافهم بالله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾! ومن ﴿هَذَا﴾ بروزهم بأعمالهم لله سراً وعلانية.

بارزون لا يقدرون على تستر واستخفاء رغم ما كانوا يظنون: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾[1] ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[2] ثم وصيغة الماضي «وبرزوا» تبرز مضي واقع البروز لله منذ برزوا إلى الوجود وبروزهم لعلمه قبل الوجود مهما كان البروز هو الظهور بعد الاستتار، فحين كانوا مستترين عن اصل الوجود كانوا بارزين لله كعلم سابق، وحين أوجدهم كانوا بارزين كما كانوا على سواء مهما خيل إليهم انهم بأعمالهم مستورون عن الله، وحين يردون على الله في يوم الله يتحقق بروزهم بكل زواياه، حيث هم يعلمون بروزهم لله، فهم بارزون لله قبل بروزهم إلى الوجود وبعد موتهم وبعد بعثهم وبعد موت من في النار مع النار، وبقاء من الجنة في الجنة عطاء غير مجذوذ ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

كما وأن هذه الصيغة الماضية بجنب هذه اللمحة اللامعة، تحقّق مستقبل بروزهم كأنه ماض، فقد كانوا بارزين لله لا يخفى عليه منهم شيء، وسوف يبرزون دون أية غطاء ولا في أنفسهم أنهم بارزون لله!.

ولما ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كافة المكلفين، وفيهم الضعفاء والذين استكبروا، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ تقصيراً دون قصور، حيث الضعف القاصر عاذر كما ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ... لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[3] وإنما ضعف من ضعيف مقصر، حيث سامح عن عقله، وتغافل عن فطرته، وتغرّب عن

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨.

إنسانيته، تنازلاً عامداً عن أخص خصائص الإنسان وهو الحرية والاستقلال في التفكير وانتخاب المسير والمصير، فقصارى ما يملكه المستكبرون هي تحديد الحياة المادية وتحبيسها، أما الحياة الروحية والفطرية والعقلية فلا مدخل لأي مستكبر إليها إلّا من الضعفاء الذين يفتحون أبواب أرواحهم بمصارعها لاي غادر مغادر.

إن المستضعفين هم ثلة على طول الخط، والمستكبرون قلة، فلماذا تخضع تلك الثلة لهذه القلة، إلا لضعف الروح، وسقوط الهمة، وعدم استقلال الارادة، والتنازل الداخلي عن اية كرامة انسانية موهوبة لكل إنسان.

ولقد بلغ بهؤلاء الأنذال الذل وحياة التبعية اللاشعورية لحدّ يستطير إلى مسرح الآخرة حيث يسألونهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ عرضاً لموقفهم المتخاذل أمامهم كأنه يحرضهم أو يمكّنهم لمقابلة الحسنى بالحسنى وهنا ﴿تَبَعًا﴾ مصدراً مفرداً دون: أتباع جمع «تابع» وقضية الجمع في ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ هي «أتباع»؟ عله تأشيراً إلى مبلغ هذه التبعية اللعينة الأعمى كأنهم نفسها دون فاعل لها، فهم كأنهم تجسيد لأصل التبعية، إذ لم يبق من كيانهم إلّا هيه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ذلك العذاب الأليم الذي هو من خلفيات تلك التبعية الملعونة المرذولة، وقد تلمح ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ بمقال سابق للمستكبرين وكما كانوا يقولون للمؤمنين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

ثم ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وتثنية «من» المبعّضة تثنّي التبعيض، عناية

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٢، ١٣.

إلى بعض من بعض، استئصالاً لإغنائهم عنهم شيئاً من عذاب الله وإن قليلاً في ذلك اليوم العصيب: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾[1] فحين ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في مطلق التبعية كالعبودية المطلقة، فهل يقابلها هنا - وفي كمال الحاجة والاضطرار - أن تغنوا عنا شيئاً وإن ضئيلاً قليلاً من عذاب الله؟! ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ وعلّها هدى الأولى والأخرى، إلا أن ﴿لَوْ﴾ في الأولى إحالة للهدى بما زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، فلما لم يهتدوا لم يكن منهم إلا الإضلال لأتباعهم وامتناع الهدى باختيار لا ينافي الإختيار حيث اختاروا الضلال فلم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلا سبيل جهنم، ثم ﴿لَوْ﴾ في الأخرى إحالة لهدى الثواب، أو التنحي عن العقاب، فمثلنا كمثلكم سواء ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ جميعاً ضعيفاً ومستكبراً ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

إن الضال في طبعه، هو من طبعه الإضلال، كما المهتدي في طبعه من طبعه الإهداء، فكونكم تبعاً لنا ككوننا جميعاً تبعاً للشيطان لا يبرّر لنا حياة التبعية الضالة، فكما كان مسيرنا واحداً في ضلال، كذلك مصيرنا و﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ حيث الآخرة هي مثال الدنيا في ضلال وهدى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2].

لقد قضي الأمر، وانتهى الجدال، وما كاد تنفع الحوار، وبجنبنا الشيطان هاتف الغواية لنا جميعاً يعترف بمثواه ومأواه، محلقاً في إذاعة جهنمية على كافة الضالين من الضعفاء والمستكبرين، منددا بهما جميعاً،

(١) سورة غافر، الآيتان: ٤٧، ٤٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

ومرددا ضلاله وضلالهم جميعاً، كافراً بما اشركتموه من قبل ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾:

أجل! «إنه يعظم إبليس لجهنم»[1] ويقول قولته النادمة، الصارخة الصارحة للحق، إذاعة بمذياعه الحاشر أتباعه، الحاسر عن مكائده ومصائده وعن كل شيطناته طول حياة التكليف، فتبدو شخصيته هناك على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء والمستكبرين، في طعنة اليمة نافذة ناشزة، حيث لا يملكون عليه رداً، ولا لأنفسهم مردا، فإنه مصارحة له ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وما هو هذا الأمر؟ هل إنه أمر حياة التكليف منذ الموت في الحياة البرزخية؟

ولما يقض كل الأمر إلا إشخاص الأمر لأشخاصه! ﴿وَقَالَ﴾ تلمح لمرة واحدة في ذلك الخطاب للضالين كلهم! والحساب فيه مؤقت برزخ! أم إنه أمر التكليف ككل عند قيامة الإحياء قبل الحساب؟ ولم يقض كل الأمر، فإن أمر الحساب إمر هو امرّ من أصل القيامة!

أم إنه أمر الحساب حين استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار؟ وهنالك أمر لم يقض بعد وهو خروج جمع من أهل النار من النار!

---

(١) الدر المنثور ٤: ٧٤ - أخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ وقضى بينهم - وفيه ذكر تسلسل الشفاعة من آدم إلى محمد ﷺ ثم: ويقول الكافرون عند ذلك قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ما هو إلا إبليس فهو الذي أضلنا فيأتون إبليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم إبليس فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم لجهنم ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ...﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وإمر الخطاب هذا لأتباعه عذاباً فوق العذاب ليس إلّا بعد قضاء كل أمر! قد يجمع الأمر هنا كل أمر يرجع إلى أهل الجمع وقد قضي الأمر كله، وكما يلمح له لام الاستغراق في الأمر، مهما شمل مثلث الأمر قبله، ورباعية الأمر لا تنافي ﴿وَقَالَ﴾ فإنه كل قالة من الشيطان تختصر وتحتصر في هذه القالة.

وترى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ هنا تعم شياطين الجن والإنس؟ وظاهر الصيغة إفراده، وإلّا لكان ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كما في أمثالها السبعة عشر الأخرى! وانه رئيس الشياطين المضللين: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1]! وإن «كم» في ﴿وَعَدَكُمۡ﴾ و﴿وَوَعَدتُّكُمۡ﴾ تشمل كافة الضالين من مستكبرين ومستضعفين من الجنة والناس أجمعين! ولم يذكر ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في موارده السبعين إلّا ويعني إبليس - فقط - دون حزبه، اللهم إلا بقرينة كـ﴿طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[2] و﴿شَيۡطَٰنًا مَّرِيدٗا﴾[3] و﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾[4].

فالشيطان - إذاً - هو الشيطان، رئيس المضلين والضالين منذ التكليف إلى يوم الدين.

في هذه المحاضرة الشيطانية - المحاذرة، ينهار سائر الشياطين صغاراً وكباراً، وعلى هامشهم كل من استجاب له.

ويا لها من كلمة قصيرة الأداء طويلة المدى، بعيدة الصدى، تضرب إلى الاعماق، وتخرق الآفاق، فتضيف إلى جحيم النار لأتباعه جحيم الندامة والحسرة الحاسرة، حيث يعرّف بنفسه هناك كما عرّف الله به هنا، والقرآن يجمع بين ما هنا وهناك، حجة قارعة بارعة لمن القى السمع وهو شهيد.

(١) سورة ص، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٧.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

﴿وَقَالَ . . . إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ وعداً يملك كل مؤشرات وبراهين الحق من برهان الواقع وواقع البرهان، دونما تخلف لوعده عن حكم الفطرة والعقل والشرعة والواقع يوم الدنيا، والذي سوف يقع يوم الدين.

وقد يعني المضي في «قال» إضافة إلى مستقبل متحقق الوقوع، قاله في ماضيه منذ اصطكاكه بالمكلفين، وطبعاً لا يتفهمه إلا من يعتقد في قضاء الأمر، حيث يتعرف إلى قاله من أفعاله، وإلى أفعاله من قاله.

ثم ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ دون «الوعد الحق» يلمح لتحقيق الوعد الحق في كل حقوله، دون الوعد فقط، فمن الواعدين من يعد حقاً ثم يمنعه مانع أم يقضي نحبه قبل قضاء وعده، وقد لا يعد أمراً ثم يحققه، ولكن وعد الله هو وعد الحق.

وقد تعني اضافة «وعد» بـ «الحق» كل تقديراتها، وعداً بالحق ووعداً في الحق ووعداً للحق وإلى الحق، حقاً في الوعد وفي تحقيقه وفي تطابقه لقضية الفطر والعقول، فلا تجد أي تخلف في وعد الله الحق، مستغرقاً كل حق موعود دونما استثناء، حقاً في الأولى وفي البرزخ والأخرى، وقد تبين لهم كله في الأخرى، وهنالك يخسر المبطلون.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ إخلافاً في أصل الوعد لكذبه، وإخلافاً في تحقيقه حيث لا يقدر عليه ولو صدق، إذ لا يملك من دون الله من شيء.

وذلك الإخلاف ليس - فقط - يظهر ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ بل ويوم الدنيا لمن أبصر بها فبصّرته، دون من أبصر إليها فأعمته.

فوعده - إذاً - وعد الباطل، وجاه وعد الحق لله، وكان وعد الله مفعولاً ومقروناً بكل مؤشرات الصدق وبينات الحق، دون وعد الشيطان إذ ليس له من سلطان:

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ سلطان البرهان، أم سلطان القوة السالبة الإختيار فإنه - ككل - من السلاطة وهو الممكن من القهر أياً كان، كما وقد يلمح «من» لاستئصال أي سلطان للشيطان، وليس له إلّا كيد و﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1] ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾.

ثم ﴿وَمَا كَانَ﴾ تضرب إلى أعماق المضي مهما مضى ولا قل تقدير منذ التكليف لأهله.

﴿وَمَا كَانَ.. إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾: دعوة فاضية خاوية، دون أن تملك أي برهان في أي حقل من الحقول، اللّهم الا مصائد ومكائد، لا يصاد بها ولا يكاد إلا من تناسى كرامة العقل والفطرة وهدي الشرعة، وبصيغة عامة، من تغافل عن آيات الله آفاقية وانفسية، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطاً: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[2].

فهنا الاستثناء منقطع، حيث السلطان السالب للاختيار ينافي تكليف الاختبار، والدعوة الكائدة الصائدة السائدة في كل حركات الشيطان لا تجد سبيلاً لتحقيقها في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3]: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[4] سلطان ليس إلّا استجابة من الذين يتولونه ويتقبلونه، فليس - إذاً - سلطاناً مستقلاً قاهراً، بل مستغلاً ظاهراً حين يجد له ظرفاً مطاوعاً.

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٤) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

فلان سلطانه على الذين يتولونه تابع لمطاوعتهم فليس هو سلطاناً له عليهم، بل تسليطاً له منهم عليهم.

فإن صدق عليه سلطان - ولا يصدق - فهو سلطان لا ينافي التكليف، والاستثناء إذا متصل، ولكنه لا يلائم معناه لغوياً وهو التمكن من القهر إذ لا قهر في سلطانه، إلا تجريداً له عن القهر في المستثنى، فهو مطلق التأثير، إذاً فلا فرق معنوياً بين انقطاع الاستثناء واتصاله ما لم يكن له سلطان القهر.

وهذه وخزة معيرة مغيرة على أتباعه إذ قضي الأمر فلا مناص ولات حين خلاص: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾.

دعوة تزيّن لهم الباطل فيحسبونه حقاً، وتصوّر لهم الحق باطلاً، فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

وللشيطان دعوات عدة في مختلف الحقول، ولمختلف العقول، لا تملك أية برهنة وسلطان إلّا نفسها بكل زور وغرور فإنه غرور.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ تشمل كافة دعواته وكافة الإجابات له على طول الخط، مهما اختلفت في الصورة، فإنها سيرة واحدة.

ليست دعوة الشيطان لغير المخلصين على حدّ سواء، بل له خطوات يخطو بها إلى أهدافه حسب الظروف والإمكانيات.

فقد يدعو ويستجاب بسهولة، وهذه لمن يتولونه وهم به مشركون، وأخرى بصعوبة ومحاولات عدة وهي لمن يؤمنون بالله، وهنالك صراعات وصدامات بين الشيطان بخيله ورجله وبين هؤلاء قد يغلبون وقد يغلبون وأخرى عوان بين ذلك، وثالثة مستحيلة وهي بالنسبة للمخلصين من عباد الله حيث أخلصوا أنفسهم فأخلصهم الله، فلا سبيل إليهم من الشيطان.

وبصيغة جامعة الغاوون هم الذين له إليهم سبيل وعليهم سلطان حسب